

التناص في شعر الأمير عبد القادر

أ. نايل سفيان

جامعة زيان عاشور - الحلفة

ملخص المقال :

يطل هذا البحث على ظاهرة بارزة تمثل جانبا من جوانب مسيرة الأمير عبد القادر الشعرية فقد استطعنا من خلاله التوصل إلى بعض الحقائق المتصلة بالتناص ، فقبل أن يكون مصطلحا ثابتا في القدر الغربي ، كان ظاهرة متغلغلة في تراثنا النقدي والبلاغي ، فقد تنبه النقاد العرب إلى ظاهرة تداخل النصوص وبخاصة في الخطاب الشعري ، فاتخذ هذا التنبه طبيعة تحليلية نقدية في كثير من الكتب النقدية تعددت فيها مجموعة من المصطلحات كالسرقة والتضمين والاقْتباس ، بيد أن أهم إسهام في مجال التناص قام به الغربيون على رأسهم جوليا كريستيفا مستنبطة إياه من حوارية باختين .

فكان شعر الأمير عبد القادر ميدانا للتنقيب والتقصي عن حيثيات التناص ، وأنموذجا أمثل لشاعر مشبع بالثقافات المختلفة خاصة منها الدينية والتاريخية ، والأدبية .. وخلص البحث أن النصوص المتداخلة معه شكلت عنصرا بارزا في تكوينه وطريقة تأليفه .. وأن الأمير استلهم من القرآن الكريم في عديد من المفردات والعبارات واتخذ من الشخصيات والوقائع التاريخية شحنة ينهل منها شخوصه ورموزه بحيث تساعده للتعبير عن الأحاسيس والعواطف الاجتماعية والسياسية ... مما أضفى على الشعر حلة جمالية وإبداعا باهرا .

Résumé:

Cette recherche est intéressé par un phénomène important. Il représente un aspect important de l'Emir Abdelkader dans les poèmes , À travers lequel nous avons été en mesure d'atteindre quelques-uns des faits relatifs à Intertextualité , Avant d'être un terme à fixer dans la critique occidentale les critiques arabes ont alerté a le phénomène des textes qui se chevauchent , Surtout dans le discours poétique . alors cette alerte prends une nature critique dans plusieurs livres critiques variées ensemble de termes tels que le vol et l'inclusion et devis. Cependant, la contribution la plus importante dans le domaine de l'intertextualité fait par les Occidentaux, dirigé par Julia Kristeva.

ينشق مصطلح التناص، كقضية ثرية بما فيه من تعددية وقابلية للتقصي والبحث، وبما فيه من جهد إبداعي يتعلّق بثقافة الأديب وقدرته على تسخيرها في العمل الإبداعي.

لقد كان شعر الأمير بدايةً مجالاً للاختيار، وقد جاء هذا الأخير منطلقاً من مدى أهمية الموضوع التابعة من الحضور المميّز للتناص في القصيدة العربية بصورة عامّة، وفي قصائد الأمير عبد القادر كشخصية جزائرية عظيمة ببطولاتها و أمجادها بصفة خاصّة، فظاهرة التناص واحدة من الظواهر السائدة في الشعر و المسهبة في بنائه، و إقامة الجدل حوله والبحث في التناص يؤدّي إلى الكشف عن طبيعة القصيدة، ويعمل على تفسير بعض جوانبها، و إبراز خباياها.

1. التناص الديني في شعر الأمير عبد القادر :

1.1 التناص على مستوى اللفظ :

لقد تضمن شعر الأمير عيد القادر حشدا كبيرا من المفردات ذات البعد الديني ومصطلحات استخدمها القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وهذا يدل على أن الشاعر ذو ثقافة دينية واسعة ، وقد قدم دلالات المفردات المتناصّة وذلك لإعطاء الخطاب الشعري قيمة فنية خاصة ، ففي معرض افتخاره بنسبه في قصيدته " أبونا رسول الله " يفتخر ويعتز اعتزازا شديدا بأصله المنحدر من الأسرة النبوية الشريفة يقول :

أبونا رسول الله ، خير الورى فمّن الورى يبغى يطاولنا قدرا

ولنا غدا دينا وفرضا محتما على كل ذي لب بهي أمن القدرا

ومن رام إذلالنا، قلت حسبنا إله الورى والجد أنعم به ذخرا¹

فالمفردات (رسول، الله، فرضا، إله الورى) كلها تعبيرات ذات دلالات دينية استخدمها الشاعر بعد ان حورها وفق ما يخدم افتخاره.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "بي يحتمي جيشي " يفتخر الشاعر ببطولاته وإنجازاته المهمة في الحرب فهو الفارس المقدم الذي يحمي جيشه بكل إرادة وبسالة، وفي هذا أيضا قد استعان بمختلف الألفاظ والمفردات الدينية نستخلصها من قوله :

وأخشى مضيق الموت لا متهيئا وأحمي نساء الحي ، في يوم تهوال

وأسير إذا ما كان جيشي مقبلا ومرقد نار الحرب إذا لم يكن صال²

وقوله أيضا :

إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحمما أقول لها صبيرا ، كصبري وإجمالي

وأبذل يوم الروع نفسا كريمة على أنها في السلم أعلى من الغالي³

فالمفردات (الموت ، نار، صالي ، صبرا ، يوم الروع ، السلم) كلها مستقاة من القرآن الكريم والحديث النبوي ، ولا شك أن القارئ يلمسها بمجرد قراءته لهذه المفردات .

ويستمر الشاعر في إضفاء مفردات ذات إichاءات دينية وهذا دليل قاطع على تشبعه الكبير بالدين سواء من القرآن أو الحديث ، ففي الأبيات التالية من قصيدة " نعم الأكرمين " يشيد الشاعر بالهدية التي قدمت له من طرف السلطان عيد المجيد وفرحه العميق بها ، لأنه لم يكن يتوقعها ، يقول :

ولم أر أعظم من نعمة	منحت ولم تك في حساب
سأشكرها شكرا وقت السرور	وأذكرها ذكرا وقت الشباب
أيا سابقا بالذي لم يجعل	بفكري ثوبا ونعم الثواب
كذا فلتكن نعم الأكرمين	تفاجي بلا منة أو طلاب ⁴

تبدو مظاهر التناصر الديني جلية من خلال الكلمات التالية (أعظم ، نعمة ، ذكر ، ثواب) ولأن الأمير عبد القادر كان متصوفا ، لم تغب عنا تلك الكلمات والرموز الدالة على مرجعية الصوفية التي استقاها من القرآن الكريم ، ففي معرض قوله في قصيدته "عود وورود"

أنا حق ، أنا خلق	أنا رب ، أنا عبد
أنا عرش ، أنا فرش	وجحيم أنا خلا
أنا ماء ، أنا نار	وهواء أنا صلد
أنا كم ، أنا كيف	أنا وجد ، أنا فقد
أنا ذات ، أنا وصف	أنا قرب ، أنا بعد
كل كون ذا كوني	أنا وحدي أنا فردي ⁵

فتبدو المقطوعة غير متماسكة في الوزن ولعل الشاعر قد نظمها في حالة غيبوبة صوفية أو أنه عمد إلى هذا الأسلوب لتسهيل أدائها من لدن حلقات صوفية ، إذ لم يغفل على إضفائه لمسحة دينية عليها من خلال المفردات التالية : (عرش ، جحيم ، حق ، خلق رب ، كون) .

وتتوالى الإيحاءات الدينية لدى الشاعر الأمير عبد القادر من خلال قصائده المتنوعة والزاحرة بالثقافة الدينية ، ففي قصيدة أخرى والمعنونة " أنا مطلق " يدرج الشاعر مفردات دينية حول مفاهيم صوفية نلمسها في قوله :

أقول باسم الابن والأب قبله وبالروح روح القدس قصدا ولا كيذا

وطورا بمدارس اليهود مدرسا أقرر تورا وأبدي لهم رشدا

وما عبد العزيز غيري عابد ولا أظهر التثليث غيري ولا أبدا

ولا أوري نار الغرس غيري موري وما قال بالاثنين إلا أنا الحمد⁶

فالكلمات الدينية تبدو واضحة في هذه الأبيات ويمكن إدراجها فيما يلي : (الابن ، الأب ، روح القدس ، اليهود ، نار، الاثنين ، الحمد) فهذه المفردات لها دلالات دينية ، أراد الشاعر أن يصورها لنا حيث بين لنا عقيدة التثليث التي يدين بها اليهود والنصارى خلافا عن ديننا .

2.1 التناص على مستوى الجملة :

بعد أن تطرقنا للتناص الديني على مستوى اللفظ في شعر الأمير عبد القادر وإن لم يشمل جميعا نظرا لضيق المقام ، سنواصل في التنقيب وتفحص استحضار التناص الديني على مستوى الجملة وهذا الأخير يكون باستدعاء الشاعر فيه لعدة جمل من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف وتكون متناصة مع ما يخدم غرضه ، فنجد في قصيدته المعنونة بـ: "شددت عليه شدة هاشمية " يقول :

بجاه خاتم المرسلين محمد أجل النبي كل مكربة حوى

عليه صلاة الله ثم سلامه وآله وصحبه ما سرى الركب للورى⁷

فمن خلال البيتين نلاحظ استدعاء الشعر لعدة جمل تبرز في شكل دعاء ، فالأمير عبد القادر يناجي الله بوجه الرسول عليه صلاة الله ثم سلامه ، ليوفقه لمهمته في الإمارة وإخراج العدو من الجزائر وإعطاء لكل ذي حق حقه ، فهذه الأبيات تتناص مع الدعاء المشهور عند الصلاة على النبي بعد التشهد "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد"⁸

وفي سياق آخر يبدو أثر القرآن الكريم واضحا وجليا للقارئ في شعر الأمير من خلال قوله في قصيدة "مسلوب الرقاد" :

ألا قل للتي سلبت فؤادي وأبقتني أهيم بكل وادي⁹

فالشعر هنا يتغزل بزوجته ومحبوته ، ويعبر عن شدة حبه واشتياقه لها وكيف سلبت قلبه وعقله وتركته حائرا وهائما، فلم يجد ما يعبر به عن هذه الفكرة خيرا من الآية الكريمة التي تتحدث عن الشعراء من خلال سورة الشعراء ، يقول الله تعالى فيها :
"والشعراء يتبعهم الغاؤون ،الم تر أنهم في كل واد يهيمون ،وأ أنهم يقولون ما لا يفعلون"¹⁰

فقد وصف الله الشعراء هاهنا بأنهم تخالف أقوالهم أفعالهم، فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت هذا أشد الناس غراما، وقلبه فارغ من ذلك وإذا سمعته يمدح أو يذم قلت : هذا صدق وهو كذب. فلما وصف الله العراء استثنى منه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن آمن بالله وعمل صالحا ، وصار شعرهم من أعمالهم الصالحة ، وأثر إيمانهم ، لاشتماله على مدح أهل الإيمان ، والانتصار من أهل الشرك .¹¹

وبذلك فهو كشاعر وع نفسه في مصاف الشعراء الذين يغيب عقلهم في حضرة الشعر.

وفي قصيدة نظمها الأمير وعنونها ب : "زكاة العلم" إجابة ليوسف بدر الدين المغربي الذي نظم قصيدة شكر فيها الأمير على شرائه دار أوقا، فكان قد استوطنها يوسف واغتصبت منه من لدن رومي ادعى انه ملكها فاشتراها الأمير ووقفها من جديد وسلمها للمغربي ومطلع القصيدة يوسف المغربي :

بك المسيرة قد نالت أمانيتها يا نعمة مالها شيء يدانيها

إن كان عيد لها تهنا بموسمه فالعيد كونك أقصى أمانيتها¹²

ففي الآية الكريمة التي تتحدث عن الأمانة وأهميتها في الإسلام ،من قوله تعالى : "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا"¹³ يظهر الأمير عبد القادر بالقول لها مطبقا بالفعل لها إذ أدمجها في شعره داعيا للأمانة فيقول في قصيدته "الباذلون نفوسهم"

أدي الأمانة يا جنوب أو غايتي في جمع شملي يا نسيم الشمال

وأهدي إلى من بالرياض بحدِيثهم أذكي وأحلى من عبير قرنفل¹⁴

فالأمر عبد القادر يعتبر أن الجزائر أمانة يجب المحافظة عليها واسترجاعها من أيدي الطغاة المستبدين المغتصبين ببذل النفس والنفيس .

بالإضافة إلى تركيب آخر قد أورده في نفس القصيدة السابقة كذلك والتي يقول فيها :

وجهت وجهي في الأمور جميعا لمحمد غيث ندا المسترسل¹⁵

فهو يتناسخ مع الآية الكريمة من قوله تعالى ((إني وجهت وجهي لذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين))¹⁶ أي أن الله وحده ،مقبلا عليه ، معرضا عن سواه، فترا من الشرك ، وأذعن بالتوحيد وأقام على ذلك الحجة

والبرهان ،والمقامهنا مقام مناظرة من إبراهيم لقومه ، ببيان وحدانية الله وان لا معبود سواه مع بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها .¹⁷ وأما عن الشاعر فقد اقتضت منها جملة " وجهت وجهي " لأنه عندما كان في الأسر كثيرا ما كان يلتجأ إلى التوسل لله ورسوله للتخفيف عن نفسه ،علما بمقدرة الله تعالى على تفريج همه وفك أسرهِ .

وفي قصيدة أخرى بعنوان "آمن من حمامة مكة " كان قد كتبها في حضرة السلطان عبد المجيد، عندما خرج من السجن واختار تركيا للمقام في أول الأمر،وقد ضمنها ما يساعده على وصف المسلمين بارض الغربية ،يقول فيها :

فالمسلمون بأرض الغرب شاخصة أبصارهم نحوهم يرجون إقبالا¹⁸

فقد اتخذت الجملة "شاخصة أبصارهم" من الآية الكريمة من قوله تعالى :((خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون))¹⁹

زيادة على ما سبق هناك جملة أخرى تدل على خلفية الأمير عبد القادر الدينية ،والتي تجلت أكثر في قصيدته "توسلات ودعاء " التي قالها من أجل نصره الدولة العثمانية في معركتها مع روسيا في جيرة القرم عام 1853م، فكان يدعو الله متوسلا بأسمائه الحسنی وصفاته العلیا أن ينصر الإسلام والمسلمين في كل مكان ،إذ يقول :

يارب يارب يارب الأنام إليه مقر عنا سرا وإعلانا

يا ذا الجلال والإكرام مالكننا يا حي يا مولاي فضلا وإحسانا

يارب أيد بروح القدس ملجأنا عبد المجيد ولا تبقيه حيرانا

فانصره عزيزا لا نظير له حتى يزيد العدا: هما وأحزانا²⁰

ففي قوله :يا ذا الجلال وذا الإكرام استحضر لقوله تعالى : "تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام".²¹ أي تعظم وكثر خيره الذي له الجلال الباهر والمجد الكامل والإكرام لأوليائه.

وكذلك قوله : "أيد بروح القدس " فقد وظف الحديث النبوي الشريف الذي دعا فيه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بقوله ك " اللهم أيد بروح القدس "

وقوله أيضا : " فانصره عزيزا " من قوله تعالى : ((وينصرك الله نصرا عزيزا،هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما))²²

بمعنى نصر الله لرسوله والمسلمين نصرا قويا لا يتضعضع فيه ، بل يحصل الانتصار التام وقمع المشركين وذلهم ،مع توفر قوى المسلمين ونموهم وأموالهم.²³ وهذا تناص مع توسل الأمير الله عز وجل لنصرة المسلمين في أي مكان وذل الكافرين وقهرهم.

وقد تعدد التضمين واختلف في شعر الأمير في كل قصائده ففي قصيدة كتبها لغرض التصوف يقول :

وفي شمسها حقا بذلنا نفوسنا فهن علينا كل شيء له قدر

وملنا إلى الأوطان والأهل جملة فلا قاصرات الطرف تشني ولا القصر

ولا عن أصحاب الذوائب من غدت ملاعبهم منى : الترائب والنحر²⁴

فالشاعر يتناص مع الآية الكريمة من قوله تعالى : ((فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان))²⁵

وهذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة ومحبتهم لبعضهم ، محبة لا يطمح معها أحد إلى غيره ، وشدة عفتهم كلهم ، والقصر هو قصر طرف الحور على زوجها أو قصر النفس.²⁶ وأما عن الشاعر فهو يدل على قصر محبته الجملة لوطنه وأهله.

وفي أجواء كهذه تتمظهر رموز القرآن الكريم بشكل جلي في قصيدة بعنوان " لو حضرت " ومطلعها :

يا صاح لو إنك لو حضرت سماءنا وصت انشاقها حين لا تتماسك

وشهدت أرضا زلزلت زلزالها ألفت ما فيها والجبال دكادك

فنظرت أرضا بذلت وسماءنا وبرزخنا حللنا وكل هالك²⁷

إذ تظهر عدة جمل من سور مختلفة كسورة الرحمان والزلزلة مبرزة أهوال يوم القيامة، ولعل سبب إختيار الشاعر لها هو أنها تتوافق وما يريد إيصاله للمتلقي فعبارة "زلزلت زلزالها" مقتبسة من قوله تعالى : ((إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها))²⁸.

أي أن الله أخبرنا عما يحدث يوم القيامة ، يوم تزلزل الأرض وترجف وترتجف، حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم .²⁹ وهذا ما أراد الأمير إيصاله، بالإضافة لعبارة "الجبال دكادك" متناصا مع قوله تعالى : ((كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملائكة صفا صفا))³⁰ جاء فيها تذكير عن اليوم الموعود وما يحدث فيه من أهوال.

3.1 التناص على مستوى المعنى :

لم يقتصر الأمير عبد القادر في تضمينه على الإقتباس الجملي، بل تشع في شعره معان قرآنية توحى بتأثر الشاعر بالقصص القرآني وتعبيراته التي تتجلى روعة وابداعا وها

هو الشاعر يضمن قصيدته " أبونا رسول الله " معاني الآية الكريمة من قوله تعالى : ((وتزودوا فإن خير الزاد التقوى))³¹ في قوله :

و بعليائها يعلو الفخار وإن يكن به قد سما قوم، ونالو به نصرا

وبالله أضحي عزنا وجمالنا بتقوى وعلم والتزود للأخرى

ومن رام إذلالنا ، قلت حسبنا إله الورى والجعد أنعم به ذخر³²

فهو يدعو لعمل الخيرات والاستباق إليها ، وطلب العلم لأنه سبيل النجاح وإرضاء الرب بالتزود لملاقاته.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "شددت عليه شدة هاشمية" التي كتبها في معركة "حنق النطاح" التي حدثت قرب وهران، فقد وجه إليه سهم فمر ولم يصبه بأذى، لما شد عليه ثم هوى على الفرس فأرادته قتيلا، قاد هذه المعركة والد الأمير محي الدين، ففي هذه المعركة استشهد ابن أخيه أحمد بن محمد سعيد ، وفي هذا الصدد ورد معنى الآية الكريمة من قوله تعالى: " فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ".³³

أي قتل في سبيل الله ، أو مات مؤديا لحقه ، ووفاه نحبه و لا يزال على العهد لا يتغير ، فهو الرجل على الحقيقة .³⁴

ظهرت هذه المعاني في قول الشاعر:

بيوم قضى نحا أخي فارتقى إلى جنان له فيها نبي الرضى فيها أوى

فما ارتد وقع السهام عنانه إلى أن أتاه الفوز راغم من غوى

ومن بينهم حملته حين قد قضى وكم رمية كالنجم من افقه هوى³⁵

هناك تناص مع ما أوردناه في معنى الآية السابقة في وصف رجولة ابن أخيه ، كيف مات واستشهد في سبيل استرجاع الجزائر وإعلاء كلمة الحق.

وقوله أيضا :

يا رب إنك في الجهاد أقمتمهم فبكل خير عنهم فتفضل

يارب يارب البرايا زدهم صبيرا ونصرا دائما بتكلل

وافتح لهم مولاي فتحا بينا واغفر وسامح يا إلهي عجل³⁶

يأخذنا إلى ما جاء في سورة الفتح من قوله تعالى : " أنا فتحنا لك فتحا مبينا ". وهنا يناجي الشاعر الله وهو من أمرنا بالجهاد في سبيله ، أن يعين جيشه وينصرهم على أعدائهم، كما نصر المسلمين في فتح مكة وظهر النصر جليا واضحا.

ولا ينفك الأمير عن مناجاة الله ورسوله متوسلاً، في قصيدته المعنونة ب: "أبونا رسول الله" التي كتبها في الأسر بفرنسا عندما التجأ إخوته إلى المغرب وتركوه وحيداً ، فلم يجد شاعرنا سوى مناجاة الله ورسوله ليخفف عما ألم به من وحدة وهم ، فهو يستعين ويرجو من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشفع له عند الله كي يخرج من الأسر، بقوله:

يا سيدي يا رسول الله يا سيدي ويا رجائي ويا حضي ويا مددي

ويا ذخيرة فقري يا عيادي ويا غوثي ويا عدتي للخطب والنكد

يا كهف ذلي ويا حامي الذمار ويا شفيعنا في غد أرجوك يا سندي³⁷

فالأبيات تتناص مع ما جاء في سورة الفلق من قوله تعالى: " قل أعوذ برب الفلق ". التي تحمل معنى الإعتصام بالله فالق الحب والنوى ، وفالق الاصباح.

وفي الأبيات الموالية من قصيدة " أمن من حمامة مكة " التي يقول فيها :

الحمد لله تعظيماً وإجلالاً ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالاً

وما اتت نفحات المسك ناسخة من المكاره أشكالا وأنواعا³⁸

هناك استلهام من قوله تعالى: ((فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً))³⁹ فالشاعر يشكر الله على خروجه من السجن، فبعد العسر الذي كان يعانيه في الأسر بعيداً عن أحبائه ، قد فرج الله عنه وفك قيده ، بتحرره من السجن، واتخاذ تركياً ملجأً له ، فهنا يتناص مع معنى الآية ، فالله قد يسر على رسوله الكريم كل عسر ولو دخل العسر جحر ضب لدخل اليسر عليه وأخرجه.⁴⁰

وبالعودة للتصوف يمكننا الإلمام بعدة معاني استلهمها الأمير من ديننا الحنيف ويمكن أن نستنتجها من قوله :

لنا منه صدر لا تكدره الدلاء ووجه طليق لا يزياله البشر

ذليل الأهل للفقير لا عن مهانة عزيز ولا تيه لديه ولا كبر⁴¹

تتحلى معاني الآية من قوله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتية من يشاء والله واسع عليم))⁴²، أي أنهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم ، ونصحهم لهم ، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم ، وبذلوا جهودهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.⁴³ وهذا ما قصده الأمير في البيتين السابقين

ويتكرر توظيف التناص من وهلة لأخرى ، ففي قصيدة بعنوان "الذي أفناني" ومطلعها:

أرى الذي أفناني سيخلفني بعد يقوم برسمنا فيشملة الحد
لذلك أرى رسمه يعين رسمنا يجيب دعي لا رد ولا جحد
فمالهم يدعونه عبد القادر ولم يبق غلا قادر ماله عبد⁴⁴

تتقاطع هذه الأبيات مع معاني الآية في قوله تعالى : ((كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام))⁴⁵ فهو يرى بأن كل من في الأرض يغدو على الفناء كما أنه على يقين ببلوغ أجله فهو عبد يغدو على الموت ولا يبقى سوى القادر سبحانه وتعالى.

وفي مطلع قصيدة "لو حضرت" يقول الأمير :

يا صاح إنك لو حضرت سماءنا وقت انشاقها حين لا تتماسك⁴⁶

نلمس تناسبا مع ما جاء في سورة الانشقاق من قوله سبحانه وتعالى : ((إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت))⁴⁷

وفي نفس السياق يقول الأمير :

وشهدت صعقتنا والإله قائل الملك في اليوم ما لي مشارك⁴⁸

فهناك استدعاء بارز لمضمون الآية الكريمة من قوله تعالى : ((يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار))⁴⁹ أشار إلى قدرة الله وعظمة المولى عز وجل يوم لا ظل إلا ظله.

2 التناصر التاريخي في شعر الأمير عبد القادر

1.1.2. استحضار شخصيات تاريخية :

لم يقتصر الأمير عبد القادر على القرآن الكريم في تناصه ومحاكاته، وإنما أدخل التاريخ الإسلامي وما يتصل به من شخصيات وأمكنة وأزمنة تاريخية، في محاولة منه لإعادة قراءة التاريخ ، ألا وهو محمد صلى الله عليه وسلم ففي قصيدته "أبونا رسول الله" يقول :

أبونا رسول الله خير الورى طرا فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرا

ولنا غدا ديننا وفرضا محتما على كل ذي لب بهي أمن الغدرا

وحسبي بهذا الفخر من كل منصب وعن رتبة تسموا و بيضاء أو صفراء⁵⁰

يعتز الأمير فيستحضر شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام في قصيدته ويولي حبه وعزته له وفي معرض آخر يوظف الشاعر شخصية دينية تاريخية ذات بعد إسلامي ، وهو كلیم الله سيدنا موسى عليه السلام ، حينما أورده ليشبهه بتفاجئه بالنبوة في الواد المقدس بتفاجئه بالإمارة بقوله :

لذلك عروس الملك كانت خطيبي كفجأة موسى بالنبوة في طوى⁵¹

كما تظهر لنا من بين السطور شخصية الخليفة عمر بن الخطاب في صدر البيت التالي من نفس القصيدة :

وقد سرت فيهم سيرة عمرية وأسقيت ظاميتها الهداية ، فارتوى⁵²

مشبها طريقة حكمه وإمارته بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو الذي لقب بالفاروق لشدة عدله .

وتلوح لنا شخصيات عديدة من التاريخ الإسلامي ، فقصيدته المعنونة بـ "توسلات ودعاء" والتي يقول فيها :

بقطبهم أحمد المختار من مضر وسيد الخلق أمكانا وإنسانا

كذلك خليفته الصديق ملجونا وأعظم الناس إيمانا وإيقانا

وبالمكنى بأبي حفص الذي افتتحت به المغالق حتى صعبها دانا

وبالخليفة ذي النورين ثالثهم أعني بذلك : عثمان بن عفان

وبالإمام أخي المختار ذاك علي من في الوغى بالعدى كل فيه فرحانا

وبابن عثمان عبد الله سيدنا وابن الكبير إياس ساد إعلانا

وحاطب وبلال ثم حمزة ذا عم النبي الكريم ساد قحطانا

بسعدهم وأبي طلحة وسهلهم كذا سعيد ظهير ساد عدنانا

بضوه عبد الله ثم أبي حذيفة وحبیب زاد رضوانا

يابن الربيع إلهي وابن رافعهم رفاعه ثم زيد سيدا كانا

وبالزبير أبي زيد كذا لبابة الخير من قد عز إخوانا

وابن عوف وعمر وعقبة وكذا عبيدة من لدين الله قد صانا

وعامر وحسين ثم عاصمهم ثم ابن صامتهم من زاد إذعانا

عويمر ثم عتبان وحق لهم
سيادة ومعاذ طاب أرادانا
ومعوذ وأخيه ثم مسطحهم
كذلك مالكهم مقدم ما شاننا
قدامة وهلال لا نظير لهم
مرارة وأبي : فضلهم باننا
إني توصلت يارب الأنام! بهم
أرجوك فضلا غفرانا وإحسانا
ثم الصلاة على المختار سيدنا
ما صار الشيب يوم الحرب شبانا⁵³

فالشاعر يدعو قيادات الجيش الإسلامي بالإقتداء بالخلفاء الراشدين والتابعين لهم في نصرته الإسلام.

وبالعودة إلى تاريخ الأدب العربي قد ذكر الشاعر حاتم الطائي وهو شاعر عربي عاش في الجاهلية يضرب به المثل في الكرم والجدود، وهو أحد حكماء العرب وكذلك إبراهيم أدهم أحد نساك سورية الذي صرف نفسه عن متاع الدنيا عبادة لله وحده في قوله :

وما حاتم؟ قل لي وما حلم أحنف؟!
وما زهد إبراهيم أدهم؟! ما الصبر
صفوح يغض الطرف عن كل كل زلة
لهيبته ذل الغضنفر والنمر
هشوش بشوش يلقي بالرحب قاصدا
وعن مثل حب المزن تلقاه يفتر⁵⁴
وهو بصدد وصف محمد الفاسي بالكرم والأخلاق الحسنة .

وفي مثل مقام آخر يقول الشاعر :

وما كل طير طار في الجو فاتكا
وما كل صباح إذا صرصر الصقر
وما كل من يسمى بشيخ كمثل
وما كل من يدعى بعمرو إذا عمرو⁵⁵

والتناصر التاريخي هنا يتمثل في شخصية عمرو بن العاص وذكره من طرف الأمير يعني علو مكانة وهمة هذه الشخصية على الصعيد التاريخي .

ويدرج الشاعر في سياق آخر شخصية تعتبر أحد أقطاب الصوفية، وقد ذكرها الأمير في مواطن شتى ، كما استلهم بعض أخباره في شعره ، بقوله :

قد شرب الحلاج كأس مدامة
فكان الذي قد كان منه مسطرا
وإني شربت الكأس والكأس بعده
وكأسا و كأسا شيا ما أنا حاضر

ومازال يسقيني ومازلت قائلا له زدني ما ينفك قلبي مسعرا⁵⁶

وفي موضع آخر يقول :

يقولون لا تنظر سعاد ولا علوا وعد من الآثار واقصد لمن تهوى

فإنك مكلوم الفؤاد متيم اخو جنة بل منها داؤك ذا أدوا⁵⁷

فالشاعر هنا يذكر سعاد وعلوا وهما عروستان من عرائس الشعر العربي بعامه، والصوفية خاصة ، ورموز العفة والنقاء ، كما تعتبران كشخصيتان تاريخيتان أعطتا بعدا تاريخيا ومعرفيا عن الصوفية.

2.2 استحضار أمكنة تاريخية :

إن عد التاريخ حقا مرجعيا لرؤى الخطاب الشعري يدفع هذا الأخير للاتكاء من المعطيات المعرفية ، والرموز ذات الدلالات المكانية ، ففي قصيدة "لييك تلمسان" يقول :

لأنك أعطيت المفاتيح عنوة فزدني أيا عز الجزائر جاها

ووهران، والمرساة كلا بما حوت غدت حائرات ، من حماك، منها⁵⁸

وهنا يذكر مواطن عديدة ذات بعد تاريخي ، كوهران ومرساها ، فوهران مدينة تقع غرب الجزائر العاصمة ، كان مرساها مستهدف في العصر الوسيط والحديث من قبل الغزاة الاسبانيين وغيرهم من اجل سلب ثرواتها.⁵⁹

وفي موضع آخر من قصيدته "شددت عليه شدة هاشمية" يستحضر الشاعر قوله تعالى : ((إني أنا ربك فأخلع نعليك، إنك بالواد المقدس طوى))⁶⁰

ويقصد بطوى الجبل الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام ، فقد اورده الشاعر في قوله :

فمن أجل هذا قد شد ربنا لها عقال ونادينا: لك العز قد ثوى

وحل بكهف لا يرام جنابه فمن حل فيه مثل من حل في طوى⁶¹

فقد شبه الشاعر هنا مكان المعركة (خندق النطاح) بالجبل طوى فقدسه ورفع من شأنه لأنه مكان نصره الإسلام والمسلمين .

وفي قصيدة " يراع ينفث سحرا" يقول :

كتاب أتاني حافظ الورد وافيًا وإن الوفي ضحت يبابا رباعه

كتاب أبي النصر الذي فاق منطقًا وينفث سحرا بابليا يراعه

فلا زال في أوج الكمال مخيما يضيء علينا نوره وشعاعه⁶²

فهذه القصيدة بعثها ردا على قصيدة مدحه بها الشيخ أبي النصر الطرابلسي ، مبديا إعجابه بها فشبها ببابل وهي التي تملك أحد العجائب السبع في التاريخ ، من حدائق فائقة الروعة والجمال.

أما قصيدته " مناجاة أحد " تبدو لنا من الوهلة الأولى استحضار الشاعر لمكان مهم في التاريخ الإسلامي ، ألا وهو جبل احد الذي أقيمت فيه أشهر غزوة في الإسلام غزوة أحد .

ضف إلى ذلك مكان مسجد قباء، أول مسجد بني في الإسلام وكذلك المدينة المنورة المعروفة باسم طيبة ، في قوله :

إلى الله أشكو ما ألقى من النوى وحلمي ثقيل لا تقوم به الأيدي

بطيبة طاب العشى ثم تمررت حلاوة فالنحس أرى على السعد

أردد طرفي بين واد عقيقها وبين قباها ثم ألوي إلى أحد⁶³

مستذكرا ما حدث في غزوة أحد ، متأثرا بما حدث فيها ، كما تطرق إلى ذكر أشهر مسجد بناه الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة، وهو مسجد قباء.

3.2- استحضار الأزمة التاريخية :

بعدهما تطرقنا لدلالة الرمز المكاني التاريخي، ها نحن نقف عند أهم الرموز الزمنية التاريخية ، التي تتوافق تارة مع المكان ، فنجد هاهنا في قصيدته " ترك العادة ذنب "

استحضار موقف الأنصار من المهاجرين إلى المدينة المنورة بتقاسمهم معهم كل ما يملكون ، فقد عاد بنا الشاعر إلى ذلك الزمن بقوله في الأبيات التالية :

إنني قاسمتهم كل مالنا كما قالها الأنصار والفاضل الجبر

لما جئت في معاشر عشر حقوقهم لو كان ذا شيء يؤدي به شكر⁶⁴

وبالعودة للتراث الإسلامي ، يستدعي الأمير زمن الفتوحات الإسلامية ، عندما كان المسلمون ينتصرون في كل معاركهم ويتوسعون في أنحاء العالم ، فكان فتحا عظيما ويتجلى ذلك في قوله: يارب ! إنك في الجهاد أقمتمهم فبكل خير عنهم فتفضل

يارب ! يارب البرايا ! زدهم صبوا ونصرا دائما بتكمل

وافتح لهم مولاي ! فتحا بينا واغفر وسامح يا الهي ! عجل⁶⁵

وفي سياق آخر من قصيدة "آمن من حمامة مكة" يعود الشاعر إلى زمن الخلافة فيصفها بالعدل والثبات مضمنا إياها بفترة حكم السلطان عبد المجيد مادحا إياه ، ويظهر هذا في قوله :

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن قد كمل الله فيه الدنيا إكمالا
عبد المجيد حوى مجددا وعز وجل قدرا كما قد عم أنوالا
كهذه الخلافة كافيها وكافلها وما عهدنا له في القرن أمثالا⁶⁶

وفي مقام آخر يشير الشاعر إلى زمن فتح القسطنطينية في قوله :

قد خصهم ربهم في خير منقبا ما خص صحبا بها قبلا ولا آلا
كما حاول الصحب والأهل والآل لها والله يختص من قد شاء أفضالا⁶⁷

خاتمة

كان هذا المقال مطلاً على ظاهرة بارزة تمثل جانباً من جوانب مسيرة "الأمير عبد القادر" الشعريّة، فقد استطعنا من خلاله التوصل إلى بعض الحقائق المتصلة بالتناص نظرياً وتطبيقياً، فقبل أن يكون مصطلحاً ثابتاً في النقد الغربي، كان ظاهرة متغلغلة في تراثنا النقدي و البلاغي، فقد تنبه النقاد العرب إلى ظاهرة تداخل النصوص، أو بالأحرى التناص في اسرد عموماً والرواية وبخاصة في الخطاب الشعري، فاتخذ هذا التنبه طبيعة تحليلية نقدية ، تعددت فيها مجموعة من المصطلحات كالسّرقة والتضمين والاقْتباس...، بيد أنّ أهم إسهام في مجال التناص قام به الغربيون، على رأسهم "جوليا كريستيفا" إذ ولد على يديها مستنبطة إياه من حوارية باختين، لتأتي الدراسات بعدها مشبعة إياه ناشرة أصداءه في مختلف الكتب النقدية المستفزة للفضوليين من الدارسين والأدباء سواء كان ذلك عند الغرب أو العرب.

ولتجسيد فكرة التناص أكثر، اخترنا شعر الأمير عبد القادر ميداناً للتنقيب والتفصي عن حيثياته، فكان أنموذجاً أمثل لشاعر مشبع بالتقافات المختلفة خاصة منها الدينية والتاريخية، التي لمسناها أكثر من خلال دراستنا، مثبتةً لحقيقة كان للغرب السبق في تنويرها ألا وهي التناص.

المصادر والمراجع:

¹ العربي دحو ، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص45

² المرجع نفسه، ص 49

³ 1 المرجع ا نفسه، ص49

- 4 المرجع نفسه، ص 94
- 5 المرجع نفسه، ص 99، 100
- 6 المرجع نفسه، ص 119
- 7 المرجع نفسه، ص 52
- 8 سعيد بن علي بن وهف القحطاني، حصن المسلم من أذكار الكتاب والسنة، دار ابن الجوزي، مصر 2010م، ص 23
- 9 المرجع نفسه، ص 57.
- 10 سورة الشعراء، الآية 223، 226
- 11 عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، ط1، دار ابن حزم، لبنان 2003، ص 571
- 12 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 75.
- 13 سورة النساء، الآية، 5857
- 14 العربي دحو ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 84
- 15 المرجع نفسه، ص 87
- 16 سورة الأنعام، الآية 79
- 17 عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص 240
- 18 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 90
- 19 سورة المعارج، الآية، 44.43
- 20 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 92.
- 21 سورة الرحمان، الآية 77.
- 22 سورة الفتح، الآية 2، 4.
- 23 عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، ص 757.
- 24 المرجع السابق ص 114.
- 25 سورة الرحمان، الآية: 57.55
- 26 عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص 669.
- 27 المرجع السابق، ص 129.
- 28 سورة الزلزلة، الآية: 1.
- 29 عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، ص 891.
- 30 سورة الفجر الآية: 20.
- 31 سورة البقرة السية 197
- 32 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر، المرجع السابق ص 45
- 33 سورة الأحزاب، الآية: 23.
- 34 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 631.
- 35 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري، المرجع السابق، ص 52.
- 36 المرجع نفسه، ص 86.
- 37 المرجع نفسه، ص 45.
- 38 المرجع نفسه، ص 90.

- 39 سورة الشرح، الآية 6.4.
- 40 عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان ، المرجع السابق، ص888.
- 41 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق108
- 42 سورة المائدة البية : 53-54.
- 43 عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان ، المرجع السابق، ص214
- 44 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق121.
- 45 سورة الرحمان ، الآية : 25-26
- 46 الرحمان بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان ، المرجع السابق، ص129.
- 47 سورة الانشقاق ، الآية :1.2.
- 48 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق129.
- 49 سورة غافر : الآية :16.15
- 50 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق ، ص 45.
- 51 المرجع نفسه، ص46.
- 52 المرجع نفسه ، ص 46
- 53 المرجع السابق ، ص93.94.
- 54 المرجع نفسه، ص94.
- 55 المرجع نفسه، ص94
- 56 المرجع نفسه، ص122.
- 57 المرجع نفسه، ص131.
- 58 المرجع نفسه ص47
- 59 المرجع نفسه، ص47
- 60 سورة طه ، الآية:11.
- 61 العربي دحو، ديوان الشاعر الأمير عبد القادر الجزائري ، المرجع السابق ص52.
- 62 المرجع انفسه ، ص78
- 63 المرجع نفسه، ص100.
- 64 المرجع نفسه ، ص73.
- 65 المرجع نفسه ، ص86.
- 66 المرجع انفسه، ص90.
- 67 المرجع نفسه ، ص91.